الموج يغرق المدينة

قصة بقلم ياسين رفاعية

شيء قاتم يلف المدينة . اللحن ينطلق ثم يتلاشى . الجدران تتهدم، وثمة بحر يغمر الشوارع بموج مالح كأنه يريد اغراق المدينة .

ويحس سالم كأنه طير بلا أجنحة يسقط في هوة سحيقة . ويدهشه هذا الاستسلام المتكسر كأنه ذل أبدي . يستند الى جدار خشن . المطر يغسل الابنية الحجرية ، والناس يعبرون الطريق كأسهم منطلقة .

كل مساء ، يرقب سالم البحر ، يسترق الطرف الى الافق البعيد ، والبحر مايزال عن بعد يرتطم بالسماء ، ثم يقفل راجعا كأنه يشيع جنازة.

لقد كان يؤمن ان يوما ما سيطل على المدينة وقد تبدل فيها كل شيء وعاد أهلها اليها . لكن هذا اليوم تأخر كثيرا . وطال انتظاره .

الصور تتوالى على ذهن سالم كأنها البارحة . اربعة عشر عاما . اربعة عشر عاما . ويعض سالم فمه دهشة . انها اعوام . لقد كان يعتقد انها شهور ليس الا . ثم يعود كل شيء كما كان .

يذكر يوم رحل الاهل والجيران والصحب ولم يبق الا النزر اليسير من امثاله . لقد كان يؤكد لهم ان رحيلهم مؤقت وسيعودون بعد شهر . وما زالت نظرة الاسى التي كانوا يطلون بها عليه مرتسمة في ذهنه لاتبرحه ، ولقد احس بعد مضي سنة واحدة ، ان هذه النظرة لم تكن قط الا صورة واقعية لما كان يحس به اولئك الذين نزحوا يومذاك ولم يكن بين ايديهم سوى اطفالهم الصغار .

يستيقظ سالم .

المطر ينهمر ، يرتطم بالارض كطيور اغتالتها رصاصات صياد ماهر . الموج مايزال يقفز الى الشوارع يغسل اسفلتها الاسود بمائه المالح . الاطفال يلتقطون الاسماك الصغيرة التي قذف بها الموج الغاضب . سالم يحدق في وجوه الاطفال الشقر والمطر يغسل الابنية الحجرية . الصور تهتز امام عينيه .

فجأة ..

يخمد البحر ، تشرق الشمس . تتبدل الابنية الحجرية . يتبدل كل شيء حوله . البحر يبتسم . موجه هادىء بريء كوجه حسناء . الناس يتجولون على شاطئه . الصغار يلعبون ، النساء يتضاحكن ، الصورة اليفة لدى سالم . هذا يوسف ذو الاراء الثورية الرائعة . كلماته ترن كأجراس الكنائس ، سالم ، لابد ان ننتصر ، سنطردهم قريبا . جميل ان اعيش واياك هذا العصر . غدا سنعمل من أجل كل هؤلاء الناس الطيبين ، سيتحدث التاريخ طويلا عنا .

ولقد كان يحب يوسف كثيرا .

وهذا ابو جبر بنظارته السميكة وعقاله الابيض الناصع ، كلماته كانت تخدره : اننا تسعون مليونا من العرب ياسالم ، ليحملوا مايريدون من السلاح لكننا سنرميهم في هذا البحر بلا سلاح . لاتفزع ياسالم . المهم اولا ان يخرج الانكليز .. عندئذ سنريهم من نحن .

ولقد كان سالم يحب أبا جبر كثيرا ، ويحب سجايره الحموية التي يلفها بيده بطريقة حاذقة . ابو جبر يحب البحر كثيرا ، ان زرقته توحي له بقصص مختلفة عن ابي العلاء المعري وعنترة وسيف بن ذي يزن. وكان له جمهوره الطيب الذي يلتف حوله في مقهى « فهد » الصغير ذي السقف القرميدي الاحمر .

حتى المحامي جبرائيل ، ذلك الرجل الضخم الجثة ، لقد كان يرفع عكازه الملون الجميل ويلوح به في الجو ثم يردد بطريقة خطابية : سالم. بهذه العصا سوف اطرد هؤلاء اللصوص ، انك متشائم الى حد يخيل للاخرين انك من الطابور الخامس . ابدا ياسالم ، يجب ان تتأكد انهم لن يمكثوا طويلا . ابدا . وحياة بيت لحم لن يمكثوا طويلا .

حتى الشيخ حسني . في الربيع ، كان يحب الشمس الدافئة والشاطىء الازرق . كان يحب التجوال في هذا الشارع وسبحته ذات الحبات السود لاتبرح يده ، تتنقل بحباتها الدقيقة من اصبع الى اصبع ، وكان جلبابه الاسود يكاد يلامس الارض وذقنه البيضاء المسترسلة تتوهج تحت اشعة الشمس كخيوط من الفضة . كان حلو النظرات عذب الابتسامة والحديث . كلماته لا تبرح سالم وعالم سالم : يا بني .. لي من العمر عتي ولقد حاربت في صفوف اول ثورة عربية من اجل الحرية . انا اعرف قومنا .. وهذه الارض ستبقى لنا . ان برحناها اليوم سنعود اليها غدا ..

الصورة تتوقف عن التموج . سالم يهز رأسه قليلا . المطر مايزال ينهمر . الموج مايزال يداهم اسفلت الشوارع . الاطفال بوجوههم الشقر وثيابهم المبتلة مازالوا يلتقطون الاسماك الصغيرة .

وتتسع حدقتا سالم . يتلفت يمنة ويسرة : اين مقهى « فهد » الصغير ذو القرميد الاحمر ..؟ ابو جبر قد رحل مع من رحلوا . يوسف الثائر سمع له رسالة من راديو لندن يحيي بها معارفه . ماذا يفعل يوسف في لندن ..؟ الشيخ حسني .. كان متفائلا اكثر مما يجب ، لقد مات مدفونا تحت حطام مسجده العتيق الذي يقوم مكانه الان بناء ضخم فيه مركز للبوليس ومنزل للدعارة وسفارة دولة اجنبية .

لقد تغيرت معالم المدينة . حتى لتبدو كأنها غريبة عنه . ومع ذلك فان أحدا من الرفاق لم يعد حتى الان . زمن طويل . زمن طويل اندحر يوما اثر يوم وهو مازال يرقب الافق صباح مساء .

ان مايسمعه في اذاعات الرفاق كان يوحي له انه لمجرد ان تنتهي الكلمة او النشرة سيسمع ازيز طائراتهم ويرقب بوارجهم تشق موج البحر .

لكن شيئا من هذا لم يكن يحدث . وتظل صدى الكلمات الرنانة والخطب الحماسية تملأ ذهنه وعالمه المخنوق كأنها القدر الجاثم بكل ثقله ورعبه على صدره منذ اربعة عشر عاما .

يخيل الى سالم الان ان الظلال تضمحل امام عينيه . هذه الابنية الشاهقة التي مازال المطر يغسلها تربض فوق احساسه كأنها جثث من الموتى ، والشوارع الاسفلتية السوداء تشق دروبها في دمه وتنفرز كالسلات في عينيه .. المدينة تتسع كأنها اخطبوط يمد اقدامه المتعددة في شرايين الارض المفجوعة . ولقد بدا له الان كما في كل يوم ان جدراننا رصاصية تنتصب بينه وبين الرفاق الذين يملأون الاذاعات بصراخهم وبأصواتهم التي لاتبح : عائدون .. راجعون .

وبمرارة وحنق ، يتساءل سالم والمطر مايزال يغسل الابنية الحجرية والبحر مايزال يغمر اسفلت الشوارع بموج مالح كأنه يريد اغراق المدينة ، والاطفال الشقر مايزالون يلتقطون الاسماك الصغيرة التي يقذفها الموج .. يتساءل سالم عن موعد هذه العودة وعن توقيت هذه الرجعة .. اربعة عشر عاما اخر ..؟! متى .. متى .. يموت ؟.. ثم يعودون ..!

هذا لايطاق ، سلمى التي غادرت المدينة مع اهلها مايزال ينتظر أوبتها مع العائدين . خاتم الخطبة مايزال في بنصره الايمن ينتظر قدوم العروس .

ويصمت سالم لحظة ... انه يفرق في تخيلاته . الرجيل يبدو له كأنه البارحة ولكن الواقع يرسم امام عينيه اربعة عشر عاما ، بشهورها . بأيامها .. بساعاتها . بدقائقها ..

سلمى لابد ان تكون قد تزوجت . لابد انها قد انجبت ايضا ... بالعينيها الحلوتين كم اكد للبحر ان زرقتهما اشد زرقة من مياهه . تزوجت سلمى . لابد انها قد تزوجت ، ونسيته ونسيت مدينتها ، ونسيت البحر . جميعهم نسوه ونسوا هذا البحر الذي يود اغراق المدينة الان .. أليس البحر أشد وفاء لمدينته من اهلها ..؟

يزداد وجه سالم التصاقا بالجدار الخشن . العتمة بدأت تلف المدينة الغريبة عنه فتبدو له كأنها مخلوق وحش يموت ، وينسل الاطفال الشقر واحدا اثر واحد حتى يخلو الشارع منهم . المطر مايزال يغسل الابنية الحجرية وموج البحر مايزال يعلو ويهبط كأنه قتيل يتخبط في اخر لحظة من حياته .

ويفرز سالم اسنانه بشفته السفلى يريد ان يمنع نفسه من العويل، يختنق صوته في حلقه حتى يبدو كأن ثمة حشرجة بطيئة تنطلق من حنجرته ويحس ان شيئا ما ساخنا ينحدر من عينيه على جانبي انفه حتى يلمس شفتيه فيحس بطعمه المالح .

كان يريد سالم كما في كل يوم ان يؤكد لنفسه ان الرفاق لايمكن ان ينسوه ، يوسف لابد ان يعود ويخطب في ساحة المدينة . وابو جبر لابد ان يعود ليقص حكاياته عن غنترة وسيف بن ذي يزن ، والمحامي جبرائيل لابد ان يدخل قاعة المحكمة هنا ، وهو يتكيء على عكازه الملون الجميل ليرافع في قضية ما .

لايمكن ان ينسوا . انه سينتظر .. سيظل ينتظر .....

عندما قفل سالم راجعا الى بيته ، كان البحر ما يزال يقذف بموجه الى اسفلت الشوارع ، والمطر مايزال يغسل الابنية الحجرية اما حيث يلتقي البحر بالسماء فلم يكن ثمة حركة الا الموج الغاضب ، والسماء كانت خالية من كل طير .

لحظة تخطى سالم باب بيته كان يبدو كأنه مطعون .. كان خنجرا حادا مغروس في ظهره بعمق .

دمشق — ياسين رفاعية

قريبا :

سلسلة القصص العالمية

وفيها تقدم دار الاداب اروع ما كتبه كبار ادباء العالم من القصص الطويلة والقصيرة .

انتظروا الحلقة الاولى :

قصص سارتر

في كتاب واحد ضخم يضم القصص التالية :
الغثيان ـ الجدار ـ الغرفة ـ ايروسترات ـ صميمية ـ طفولة قائد ـ صداقة عجيبة

نقلها عن الفرنسية
الدكتور سهيل ادريس

والحلقة الثانية :

قصص كامو

في كتاب واحد ضخم يضم القصص التالية :
الغريب ـ الزوجة الخائنة ـ الجاحد ـ البكم الضيف ـ جوناس ـ الحجر الذي ينبت

ترجمة
عايدة مطرجي ادريس

منشورات دار الاداب